عصور الركود

وعصور التغير في حياة الامم

لعبد الرحمن شكري

تظل الامم راكدة في عصور من عصور حياتها ولها في عهد ركودها فضائل ونقائص، ثم يجيء عصر التغير وقد يكون تغيراً يسبق نهضة ولكنه عصر اضطراب على اي حال، ويكون مصحوباً بتفكك القيود الفكرية والخلقية والادبية لدخول مقاييس فكرية وخلقية جديدة ناشئة من اجتباء آراء جديدة، وتكون الامة في تلك الحالة اشبه بالماء الذي أثار إعصارٌ ما في قاعه من اوشاب فيبدو الماء عكراً

وكذلك الامة تبدو حياتها الخلقية والادبية متكدرة في عصر التغير، وأخوف ما يخاف هذا الاعتكار على امة اذا لم يكن قد دخلها اثناء عصر ركودها وقبل عصر التغير، عناصر جديدة مقوية لم تأخذ منها طباعُ وهن نفوس العناصر القديمة، كل مأخذ، فيخشى في هذه الحالة ان تصير نهضتها نهضة مفتعلة محدودة وقد تكون فيها مظاهر جليلة فلا يمنع ذلك من اندثارها، كما حدث لنهضة الاسرة السادسة والعشرين في تاريخ مصر القديم وكما حدث لنهضة (نيوهلنزم) في أواخر عهد الحضارة الاغريقية ومثل نهضة الدولة البيزنطية في اواخر العهد الروماني الاغريقي

اما اذا كانت الامة قد دخلتها عناصر جديدة قوية فان ما يصيبها من الاعتكار بالاضطراب لايخاف منه كل الخوف، بل يكون مصيره الاستقرار. ومثل ذلك الامم الاوربية في عصر نهضة احياء العلوم فان ما دخل غرب اوربا من الآراء الجديدة اوجد انقلاباً واضطراباً كبيراً في حياتها الفكرية والخلقية والفنية . ولكن امم غرب اوربا كانت قد اعيد تكوينها بسبب العناصر التوتونية التي دخلتها ولم تكن تلك العناصر قد اوهنتها طباع الوهن الفكري والخلقي التي انتابت

الدولة الرومانية في اواخر ايامها ومن اجل ذلك امكنها ان تصمد لذلك الاضطراب الخلقي والفكري حتى استقر

ولكن هب ان هذا الاضطراب قد حدث قبل دخول التوتون او هب انه جاء متأخراً بعد ان ضعفت العناصر التوتونية وتشبعت بطبائع الوهن الخلقي والنفسي الذي انتاب الرومان في آخر حياتهم، ماذا كان يكون أثر الاضطراب الخلقي؟ انه كان يكون عاملاً على الفناء لا نذيراً بالرقي. انه كان يكون اشبه بالنبيذ يعطى للشيخ الهرم وهو يحتضر كي يقويه ويطيل حياته فلا يزيده الاّ آلاماً واحتضاراً. لان الامة اذا تقلبت عليها العصور وهي مختلة النظم تمكنت منها عوامل الضعف النفسي وانهكتها حتى تكره النظر الى نفسها في مرآة العقل وتصير مثل الرجل من العامة الذي يفضل ان ينتظر انقضاء على ان يتعاطى الدواء

***

ولعلّ القارىء قد وجد بين العامة من يسيء الظن بالطب والاطباء ومن يرى الصحة والشفاء في تجاهل الداء. فاذا اضفت الى هذا الضعف النفسي الذي يكون من ركة التاريخ والذي شرحناه في مقال سابق، اقول اذا اضفت اليه ما يحدث من الاضطراب الخلقي الناشىء من عصر تغيّر يجيء فيه آراء جديدة وحياة جديدة وتتفكك فيه الروادع الخلقية القديمة كانت الفوضى الخلقية اعظم. فاذا اضفت الى هذين العاملين عاملاً ثالثاً وهو تقليل الضغط وازدياد الحرية وما يأتي مع الحرية الجديدة عادة من شطط في الخلق والفكر كان الاضطراب الخلقي اهول. فاذا اضفت الى هذه العوامل الثلاثة عاملاً رابعاً وهو ازدحام السكان والتقاتل على المعاش بسببه وما ينشأ عن استحرار القتال من استباحة الرذائل والشرور كانت الفوضى الخلقية اتم واحط لاجتماع هذه الاسباب الاربعة

ولا تستطاع مداواة تلك الفوضى الخلقية الاّ بعد تقصي الداء والنظر في اعراضه ورغبة المريض في الطب. اما اذا اختبأ المريض تحت لحافه وقال انه معافى فانه لا يستطيع ان يصرف الحمومات بانكارها

وقد تكون مداواة هذه الحالة غير مستطاعة لتمكن صفات الاثرة والتخاذل والتعادي وغيرها من مخلفات التاريخ في النفوس الضعيفة، ولان هذه العيوب النفسية تظهر بمظهر القوة كما اوضحنا في مقالة ركة التاريخ. وانما كما ذكرنا قوة ولدتها سنة الاستعاضة في الطبيعة تلك السنة التي تجعل من كيد الاضعف ومكره واحتياله وكذبه قوة كما قوت الثعلب بهذه الصفات

وكثيراً ما يكون تقدم النهضة الفكرية والفنية في هذه الاوساط اشبه بتقدم المرء في حارات

القاهرة القديمة المسدودة التي لا منفذ لها . ولعل اكبر عوامل الخيبة هو عدم المبالاة بتلك الحال وقد تنعدم المبالاة في الامور الفكرية والفنية كما تنعدم المبالاة عند مشاهدي حوادث الاجرام من قتل أو سرقة او قذف او وشاية في امثال هذه الاوساط التي يتهرب الناس فيها من المبالاة او يثنون الجاني حتى يصير هو المبجل المعظم المهيب المقصود بالمدح المنعوت بالفضائل فتنقلب الاوضاع وتعم الفوضى الخلقية ويصبح المجال مجال الاحتيال والخداع والرياء وتتغلب هذه الصفات على النفوس وتأخذ منها كل مأخذ حتى تصير كالجدار الذي يسد الحارة التي لا منفذ لها فتعوق تقدم كل نهضة فكرية او فنية

ويلتجيء الناس في هذه الاوساط الى الرياء اما لضرورة كسب الرزق ومجاراة البيئة واما لاخفاء عجزهم عن اصلاح تلك المأساة الخلقية ولظنهم ان اخفاءها يقلل من اثرها في حياة الافراد والامم . والتهرب من مواجهة الحقائق انما هو تهرب من وسائل العلاج وهو كهروب السجين الذي الف السجن ممن يريد اطلاق سراحه . وهؤلاء المتهربون جميعاً يكيدون لانفسهم ويجنون على ذرتهم لان هذا الاضطراب الخلقي وهذا الانقلاب في الاوضاع سواء أ كان قائماً في عصر الركود او ناشئاً بسبب عصر تغير او انهُ كان في عصر ركود ثم زاده عصر التغير حدة او انهُ زاد حدة على حدة بسبب اجتماع العوامل الاربعة التي ذكرناها — اذا ترك ولم يعالج كان داء عضالاً اقل آثاره انهُ يجعل حياة الناس أشبه بالحارة المسدودة تعوق تقدم النهضة الفكرية والفنية الا الى مسافة محدودة واعظم شروره انهُ يكون كالجراثيم التي تعمل خفية في جسم المريض الذي اريد اخفاءه صيانة له

ومن الحكمة ان لا تترك عوامل الانحلال يعتز بها لظهورها بمظهر القوة حتى تصير الحال الى ما وصفنا في حياة الناس قديماً وحديثاً

وقد يختلط الاضطراب الخلقي وانقلاب مقاييسه اذا كان من مخلفات عصور التأخر واذا كان في عصر تغير ولكن التاريخ يميز بينهما فترى في اواخر عهد الدولة الرومانية مثل هذا الانقلاب في المقاييس وترى انقلاباً في المقاييس في عهد نهضة إحياء العلوم ولكن شتان بين الظاهرتين وشتان بين العهد الروماني الاخير وبين عصر النهضة فقد كان في العهد الاول مجانة فكرية وخلقية وصفة سطحية في مظاهر الفنون والفكر

اما في عصر نهضة إحياء العلوم فكان الاضطراب الخلقي ناشئاً من تفكك عرى روادع الكنيسة وذهاب ما سنته من التقشف فكان شيئاً برد الفعل عندما انتشرت دراسة الآداب الاغريقية القديمة وأطلعت لاهل غرب اوربا مظاهر الجمال الفكري والنفسي في المعقولات

والفنون وكل حرية يصحبها شيء من الشطط وهذا الشطط كان فيضاناً للفكر والنفس والقوة الحيوية طغى على شاطىء نهر الحياة

وكان الرومان في اواخر عهدهم قد تبدلت أوضاع نفوسهم لاسباب منها فساد النظم الاجتماعية وما كان لهُ من أثر في النفوس وكان الاضطراب الخلقي وانقلاب اوضاعه دليلاً على نضوب حيويتهم اما في عصر النهضة ، فان امم غرب اوربا كانت قد دخلتها قبل ذلك عناصر جديدة نشطة لم تصادف من الحوادث الاجتماعية ما يقتل حيويتها واستفادت هذه العناصر من حضارة الرومان ثم جاء عصر النهضة وجاءت معهُ حرية يصحبها شطط فكان هذا الشطط أبعد ظاهرة عما كان عليه الرومان في اواخر عهدهم

على ان الآثام التي كانت في عهد نهضة الإحياء كان اكثرها محصوراً في طبقة خاصة من المترفين والامراء ولا أحسب ان آثام الاشراف في قلاعهم في العصور الوسطى كانت اهون من آثام عهد الاحياء

***

وقد كان عصر نهضة الاحياء عصر ايمان بالحياة ومطالب الحياة من فكر وبحث وكشف وفنون واصلاح. فاذا وجدت في امة اضطراباً خلقيًّا واردت ان تعرف الى اي مدى يرجع هذا الاضطراب الى تغير يسبق نهوضاً والى اي مدى هو من مخلفات عصر التأخر فانظر هل نجد الى جانب الاضطراب الخلقي ايماناً بمطالب الحياة من فكر وبحث وأدب وكشف وفنون وهل اهتمام القوم بهذه المطالب اهتمام إجلال متين وشعور عظيم ام انهُ انشغال بها واهتمام بها مصحوب بالصفة السطحية في الفكر والشعور ووراء هذا الاهتمام الظاهر السطحي عدم مبالاة بالحق في كل مظهر من مظاهره النفسية والادبية والفكرية والفنية ووراءه ايضاً الصفات التي تعوق تقدم النهضة فيها مما قد ذكرنا في مقالة «تركة التاريخ» وهي صفات توجد في كل عصر وانما العبرة بغلبتها. وبقدر تمكنها من النفوس تكون العوائق التي تعوق الحياة الفكرية والنفسية في العلوم والفنون حتى لقد تصير تلك الحياة اشبه بالحارة المسدودة التي لا منفذ لها تسلكها الى مدى معين ولكن لا تنفذ منها ولا بدَّ ان ترجع القهقرى فيها. وتكون تلك الصفات اذا اخذت على النفوس كل مأخذ أشبه بذلك الجدار الذي يسد الطريق وقد يفر المرء ما يجده من مظاهر الحركة والحياة في تلك الحارة التي لا منفذ لها كما يفره مظاهر الانشغال بالامور الفكرية والفنية في الاوساط التي تشتد فيها الصفات التي شرحت في مقالة «تركة التاريخ»